الثأر للوطن

الثأر للوطن

تأليف
جون شتاينبيك

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق – بيروت
تلفون : 00 961 1 803 674 فاكس : 00 961 1 790 223
E-mail : darbachir@terra.net.lb

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الترجمة والتأليف وغيرها محفوظة لشركة دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.
وذلك بموجب الإقرار والتنازل الموثق لدى وزارة العدل – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق – مكتب شمال القاهرة – توثيق مصر الجديدة – جمهورية مصر العربية – تحت رقم ١٦١٩ لسنة ١٩٩٨ .
ولا يحق لأي كان نشر أي قسم أو جزء من هذا الكتاب أو من مطبوعات كتابي أو كتابي أو اي كتاب يحمل إسم الكاتب / حلمي مراد وبأية وسيلة كانت ... إلا بعد أخذ موافقة خطية من
(شركة دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.)
طبع هذا الكتاب بإذن خاص من شركة دار ميوزيك

الإسم الأصلي للكتاب
THE MOON IS DOWN

إسم المؤلف
جون شتاينبيك

لماذا اخترت لك هذه القصة؟

عزيزي القارئ:

عندما خطر ببالي أن أقدمَ لك في هذا العدد من "مطبوعات دار ميوزيك" قصةَ "**الثأر للوطن**"، التي تعتبر من أروعِ ما كُتب عن حركات المقاومة للاحتلال الأجنبي، وجدت فكري يتجه من تلقاء نفسه إلى الربط بين الظروف التي كتب فيها "**جون شتاينبيك**" هذه القصة، والظروف التي اجتازتها "**مصرُ**" وقت العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي الغادر عليها، والذعر الذي نقلته البرقيات إلى كافة أرجاء العالم.. ذُعْرِ الأنذال المعتدين، من المقاومة النبيلة التي يصليهم شواظها أبطال "**بورسعيد**"!

لقد كتب "**شتاينبيك**" هذه القصة عندما سولت الأطماع لـ"**ألمانيا**" النازية أن تعتدي على حرية الدول، فأشعلت نار الحرب العالمية الثانية، وأرسلت قواتها لاحتلال بلاد "**النرويج**" الآمنة، غيرَ حافلة بحيادها الذي كانت تضمنه القوانين الدولية، ولن تتمالك نفسك من أن تتمثل "**بورسعيد**" الباسلة، وأنت تقرأ قصة البلدة النرويجية الصغيرة التي اتخذها "**شتاينبيك**" مسرحاً لوقائع قصته.. البلدة الآمنة التي احتلها جنود المظلات النازيون غَدْراً، فإذا بشعبها المسالم يقض مضاجعهم، وإذا الشعب الأعزل يصبح مصدر فزع وذعر للغزاة المسلحين، وإذا القوم المغلوبون يصبحون هم المنتصرين!

ومن سخريات القدر أن "**النرويج**" في كفاحها النبيل، كانت تتطلع إلى "**إنجلترا**" كملجأ للحرية.. بل إن أبطال حركة المقاومة النرويجية كانوا يتطلعون إلى "**إنجلترا**" كما لو كانت الزعيمة التي تحمل لواءَ الدفاع عن الحرية.. ولكن القدر شاء قبل أن تنقضي أربع عشرة سنة على كفاح "**النرويج**"، أن يكشف حقيقة "**إنجلترا**" للعالم بأسره، فإذا "بطلة الحرية" تَنْضو ثوب البطولة الزائف عنها، وتتنكرّ لكل المبادئ التي

أجادت أجهزة دعايتها تزييفها ، لتبدو على حقيقتها .. ذئبا كاسرا ، لايعبأ بشرف ، ولا مبادئ ، ولامُثُل عليا ، ولا قوانين دولية ، في سبيل إشباع نَهَمه الاستعماري البشع!

*****

هذه المفارقة العجيبة ، أو هذا التناقضُ العجيب بين "**إنجلترا**" في ثوب البطولة الذي تنكرّت فيه أيام الحرب العالمية الثانية لتثير العالم ضد النازية – حمايةً لأمنها وسلامتها ، وليس دفاعا عن الحرية!- وبين "**إنجلترا**" كما تجلّتْ على حقيقتها للعالم في العدوان الوحشي الآثم على "**بورسعيد**" .. هذا التناقض الصارخ كان من أهم العوامل التي شجعتني على أن أقدم لك هذه القصة .

وثمة عامل ثان، هو أنني لم أتمالكْ نفسي من الاسْتسْلام للزهو والفخر ، وأنا أقرأ قصَصَ مقاومة الشعب النرويجي للغزاةِ المعتدين – وقد صورها "**شتاينبيك**" نقلا عن أكثر المصادر دراية بها ، كما ستقرأ في المقدمة التي تلي هذه السُّطور–فأجد صور هذه المقاومة ، على نبلها وبسالتها ، تبدو باهِتة إزاء البطولة الفذّة التي تجلت في حركة المقاومة الشعبيةفي "**بورسعيد**" الخالدة!

بَقِيَ عامل ثالث .. ذلك هو الإعجاب بـ"**شتاينبيك**" نفسه ، فإن "**شتاينبيك**" في كفاحه من أجل النجاح ، ضرب أمْثلة خليقاً بكل كاتب أن يتدبرها ، ليرى كيف تتغلب الأمانة للرسالة على كل بريق للمادة!.. ولكنني لن أزيد ، لأترك لك مجال الحكم بنفسك!

وتقبل تحياتي ..

"جون شتاينبيك"

الكاتب الذي كان يخشى الشهرة

خشيته للموت!

لعلّ الأقدار كانت تريد لـ"**جون شتاينبيك**" أن يُصبح قصصيا ، منذ مولده في ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢، فقد وُلد في بلدة "**سالیناس**" بولاية "**كاليفورنيا**" في "**أمريكا**" ، وهي بلدة صغيرة في مقاطعة "**مونتيري**" إحدى المقاطعات الأمريكية التي ماتزال تعيش في فطرة البداوة إلى حد بعيد . . فما تزال نفوسُ أهلها صافية ، وقلوبُهم عامرةً بالطيبة، وعقولهم ساذجة إلى الحد الذي يجعلهم يعشقون رواية القصص أو الإنصات إليها ، حول النار التي يسمُرون حولها في التلال . .

ولقد وُلد "**جون**" لأب "**ألماني**" الأصل ، وأم "أيرلندية" الأصل . . فإذا علمتَ أنه كتب هذه الرواية "**غروب القمر**" – أو "**الثأر للوطن**" كما آثرنا أن نسميها – كمساهمة في مقاومة العدوان النازي على شعوب "**أوروبا**" ، وشعب "**النرّويج**" بالذات ، خلال الحرب العالمية الثانية ، فلا تعجب لتنكره للأصل الذي انحدر منه ، إذ إن الحرية التي رَضَعَها مع لبن أمه الأيرلندية– سليلة الشعب الثائر المجاهد – كانت أقوى من النَّعْرة العنصرية!

ولقد كان والد "**شتاينبيك**" هو المسؤول عن الشؤون المالية في مقاطعة "**مونتيري**" ، إذ كان مدير الإدارة المالية في حكومة المقاطعة . . أما أمه فكانت معلمة، ولعلها صاحبة الفضل في شغفه بالقراءة والكتابة . على أنه لم يكتب بوحي من دروس أمه فحسب ، وإنما استمد إلهامه من دراسته للناس ونفوسهم ، ومن اختلاطه الحقيقي العملي بالحياة ذاتها وتفاعله معها . فقد اعتاد أثناء دراسته الثانوية أن يقوم ببعض الأعمال المؤقتة في المزارع . . فعمل مساعدا لنجار ، وصبيا لنقاش، وعاملا في المصانع . . كما دفعه حبه للعلوم إلى أن يعمل مساعدا في بعض المعامل الكيميائية . .

الخفير الذي انصرف إلى تأليف الروايات!

ثم التحق بجامعة "**ستانفورد**" في سنة ١٩١٩ ، ولكنه شغف أثناء دراسته الجامعية بالتجوال في المراعي ومزارع تربية المواشي ، فكان لايحضر سوى الدرُوس التي تَرُوق له، ثم يهيم في تلك المزارع ، ويقضي أوقاتا بين أهلها . وما لبث أن ترك الجامعة في سنة١٩٢٥، دون أن يظفر بدرجة جامعية ومنذ ذلك الحين ، أصبح همّه في الحياة التّجوال والكتابة.. فرحل إلى الولايات الشرقيةمن "**أمريكا**" على إحدى سفن البضائع ، حتى إذا بلغ "**نيويورك**"، آثر الاستقرار فيها..

وكان لابد له من مورد يتعيشُ منه في "**نيويورك**".. المدينة الكبيرة التي لم يكن له فيها معارف أو أصدقاء .. ومن ثم عمل كمخبر صحفي فترة ، ولكنه ما لبث أن فقد عمله ، فلم يتورع أو يخجل من ممارسة بعض الأعمال التي تبدو تافهة في نظر أي شخص حظِيَ بقسط من الدراسات الجامعية ، حتى لقد مارس حرفة البناء ، واشتغل مع البنائين فترة من الزمن!

.. وما لبث بعد عامين أن عاد إلى ولاية "**كاليفورنيا**"، فاستُؤجر لحراسة بيت في منطقة "**هاي سييراس**" الجبلية!

والظاهر أن مركزه كخفير أتاح له فسحة من الوقت ، وجوا من الاستقرار . ففي أثناء عمله في الحراسة ، وضع أولى رواياته ، وهي التي نشرت في سنة ١٩٢٩، تحت اسم "**الكأس الذهبية**".. ومن عجب ، أن أحد الناشرين عرض عليه بعد سبع سنوات – وبعد أن ذاع اسمه – أن يعيد طبع هذه الرواية ، فكتب إلى "**ميكنتوش**"و"**أوتيس**" اللذين صارا وكيليْ أعماله ، يتصلان بالناشرين ويشرفان على مصالحه.. كتب إليهما يقول :" لست أشعر بفخر جم بهذه الرواية ، وقد كنت أوثر لو أنها لم تنشر قط.. أما وقد نشرت بالفعل ، فلا سبيل إلى حجبها .. ولابأس إذن من إعادة نشرها" !

ثمن القهوة.. من الجريمة!

وهذه ناحيةٌ في شخصية "**شتاينبيك**" قد لاتجدها لدى كثيرين من الأدباء والمؤلفين.. وأعني عزوفَه عن نشر ما لايرتاح إليه من إنتاجه ، مهما تكن حاجته إلى المال، ومهما يكن إغراء وكيليه والناشرين الذين يطمئنون إلى إقبال القراء على أيّ كتاب يحمل اسمه !

ومن نوادره في هذا الصدد ، أنه وضع حوالي سنة ١٩٣٢ رواية بعنوان "**اللحن الأخرس**" . وبينما كان وكيلاه يعرضانها على الناشرين ، خطر له أن يعيد قراءتها ، فما إن فعل حتى كتب إليهما يرجوهما أن يردّاها إليه ، قائلا :" إنني أشعر بخجل إذ كتبتُ شيئا كهذا!" . وكان قد حاول في تلك الأثناء أن يتمشى مع التيار الذي جرف دنيا القصة في "**أمريكا**" منذ العِقد الثالث من القرن الحالي، فكتب قصة من قصص الجريمة، ودفع بها إلى وكيليه .. فلما سحب "**اللحن الأخرس**" ، كتب إليهما في الخطاب ذاته يقول:" إن الجريمة قد تصلح لو أنها اختُصرت قليلا ، ولو أنها درتْ مبلغا ضئيلا من المال ، لكان هذا أفضل من حزمة الورق التي تضمنتها .. إنه قد يساعد على دفع ثمن القهوة التي أحتسيها!" .. وفي الخطاب ذاته أيضا ، كتب يقول:" لقد اقترب موعد دفع أجرة المنزل ، وسنضطر إلى مغادرته عاجلا.. إلى حيث لاأدري !" .

عمل غير مربح لناشريه!

على أنه إذا اقتنع بوجاهة إحدى الأفكار التي يبني عليها رواياته ، لاينثني عنها حتى يجعل منها رواية ناجحة.

وقد حدث – في نفس الفترة التي ذكرناها – أن كتب رواية بعنوان "**الإله المجهول**" . ودفع بها إلى وكيليه، وكانا في بداية علاقاتهما به ، ولم يُوفَّقَا بعد في بيع شيء من إنتاجه للناشرين .. وعرض الوكيلان الرواية على عدد من دور النشر فأجمعت على

رفضها ، ومن ثم كتبا إلى "**شتاينبيك**" يُعربان عن أسفهما ، فرد عليهما قائلا : " إن ما ذكرتماه عن فشل الكتاب في الظفر بناشر ليس بالنبأ البغيض أو المؤلم .. بل إنني سأعيد كتابة الرواية من جديد، وسنرى ما إذا كان اعتقادي في روعة الوقائع والحوادث يتمشىّ مع آراء النقادوالناشرين .. على أنني لن أبذل أي جهد للاتصال بالصحفيين للترويج للقصة.. فشكرا لنصيحتكما.. ولكنني عميل غير مربح؟!

ولكن الحظ متقلب مع الزمن.. فبعد ست سنوات ، وكان اسم "**شتاينبيك**" قد بدأ يشتهر، كانت هذه الرواية – بعد أن أدخل عليها بعض التنقيحات ،والتعديلات التي ساعدت على نشرها تحت اسم "**نحو إله غير معروف**"– سببا في علو صيته ، ورواج مؤلفاته ، وزيادة دخله.. كذلك!

تجديد .. في فن الرواية

على أن بداية المجد لـ"**شتاينبيك**"– ككاتب روائي – اقترنت برواية "**مراعي السماء**"، التي حاول الكاتب أن يصور فيها الحياة في واد كانت ترفرف عليه السّعادة بأجلى آياتها ، وكان الوئامُ يسود الأسرات العشرين التي كانت تعمره .. ذلك هو وادي "**باستوراس ديل سبيلو**"، أي مراعي السماء .. نفس الاسم الذي أطلقه على الرواية ! وترجع قيمة هذه الرواية بالنسبة لمجد "**شتاينبيك**" إلى أنه اتبع فيها طريقة مبتكَرة لم يألفها الروائيون .. إذ جعل الكتاب عبارة عن مجموعة من القصص المستقلة، تصلح كل منها لأن تكون قصة قصيرة كاملة، ولكنها تربط بعضها ببعض بوحدة الشخصيات، والوسط الذي تدور فيه الحوادث ..، وتتوالى في ترتيب يجعل بعضها استئنافا لبعض – برغم استقلالها – حتى تصل أحداث الرواية إلى أَوْجها !.. ولعل الحافز الذي شجع "**شتاينبيك**" على الاتجاه إلى هذه الطريقة ، هو أنه لم يعتد أن يرسم مقدما فكرةً معينة وهيكلا يتشبث بهما في علاج الحوادث ، وفي التقيد بأسلوب معين أو بطريقة معينة للعرض ، كما تفعل الغالبية العظمى من الروائيين والقصصيين!

وما إنْ ظهرت "**مراعي السماء**" – في سنة ١٩٣٢– حتى قُوبلت بحرارة وتشجيع من النقاد ، وإن لم يكن رواجها عظيما .. وإلى هذا التشجيع وتلك الحرارة ، يرجع الفضل في وصول "**شتاينبيك**" إلى أولى درجات المجد..

ينزعج من الشهرة .. إلى درجة الموت!

ولكنه لم يرق السُّلم درجة فدرجة ، إذ استطاع بروايته التالية "**تورتيلا فلات**"– أو هضبة "**تورتيلا**– أن يَطْفرَ طفرة واسعة، وقد اتبع فيها عين الطريقة المبتكرة السابقة .. طريقة تكوين الرواية من عدة قصص قصيرة . ولعل هذه الطريقة هي السر في أنك لا تجد لهذا الكاتب كثيرا من القصص القصيرة القائمة بذاتها ، فهو يشبع ميله إلى القصص القصيرة بكتابتها على شكل حلقات في رواية طويلة!.. ومما زاد "**تورتيلا فلات**" روعة ، أنه مزج فيها الفكاهة بالمأساة، والجد بالهزل ، في براعة نَمَّتْ عن نبوغ!

والواقع أن النّبوغ في "**شتاينبيك**" غريزة فطرية كان يكشف عنها شيئا فشيئا في اجتهاده ودأبه وممارسته للكتابة.. ومن ثَمَّ فقد كان إنتاجه – لاتقريظ النقاد – هو الذي أظهر عبقريته ودعم مكانته في عالم الأدب الأمريكي الحديث!

وعندما نُشرت "**تورتيلا فلات**" – في سنة ١٩٣٥– استُقبلت استقبالا مشجِّعا، حتى ليمكن اعتبارها أول رواج فعلي لـ"**شتاينبيك**" ، أو بالأحرى أول إنتاج أذاع اسمه لدى جمهور القراء عامة في بلاده ، بعد أن كانت شهرته مقتصِرة في باكورتها على طبقة أو طبقات معينَة من القراء .

والعجيب في الأمر ، أن الكاتب نفسه لم يَرْضَ عن هذه الرواية رضاءه عما سبقها ، حتى لقد كان يعتبرها "إنتاجا من الدرجة الثانية "، وكتب لوكيليه يبدي عجبه من النجاح الذي لقِيَتْه ، قائلا:" من العجيب أن هذا الكتاب الذي أعتبره من الدرجة

الثانية، والذي كتبته لمجرد الترويح عن النفس، قد أثار كل هذه الضجة!" .

والأعجب من هذا ، أن النجاحَ أخافَه وأقلقه . فقد مضى يقول في ذلك الخطاب: " إنني منزعج- إلى درجة الموت- من الشّهرة .. فقد أفسدت عليّ كل إنسان عرفته!" ..

وعندما طلبتْ إليه دار النشر - التي تولت نشر الكتاب- صورة له تستغلها في الإعلان ، كتب يقول: " لم تلتقط لي صورة قط.. ولست أزعم أن هذا راجع إلى طبع متأصل في نفسي ، أو إلى تعمد .. كل ما هنالك أنني لاأؤمن بالمزج بين الشخصية والعمل.. ولعل هذا المزجَ عادة مألوفة ، ولكنني أحبُّ أن أخرجَ على هذه العادة .. فإني إخال أن الجمهور يضيق بالتفصيلات التي تُنشر عن الكاتب!" .

يكره الإعلان عن شخصيته!

وسواء أكان "**شتاينبيك**" مخطئا أو كان مُصيبا فيما خاله من ضيق القراء بما يُنشر عن الكاتب ، إلا أن هذا الظن اتّخذ عنده شكل اليقين ، فظل أمينا له ، لايخرجُ عنه ، وعندما نال أول تكريم أدبي شبه رسمي ، حين اختار "نادي كتاب الشهر"- وهو من أكبر الهيئات الأدبية في "**أمريكا**" - كتابه "**فئران ورجال**"، الذي نُشر في سنة ١٩٣٧، سُئل أن يوافي النادي بشيء عن تاريخ حياته وشخصيته ، فكتب لوكيليه يقول: "لعلكما تعرفان مدى بغضي للمادة التي تنشر عن شخصي ، فأرجو أن تنقلا عني هذا.. والواقع أنني أوُثر من المسؤول عن النشر أن يَقصُر حديثه على الكتاب ذاته.. وجلية الأمر ، أنني لايمكن أن أُفْلح في تأليف الكتب إذا فُرض علي أن أعتد بنفسي وأُفكر فيها" .

وكانت الفكرة التي تشبث بها هي أنه لن يَرضى عن نفسه، إلا إذا استطاع أن يطمئن إلى أن الجمهور عرفه من إنتاجه ، وليس مما يُكتب أو يُذاع عنه !.. والواقع أنه كان مصيبا في رأيه هذا .. فإن الكاتبَ الذي يُصبح شخصية عامة ، يفقد الكثير من مسلكه العادي ، إذ إن الخوض في سيرته وحياته لايلبث أن يوحي إليه بأنه على غير شاكلة الناس الذين يقرءون له . ومن ثم يتباعد شيئا فشيئا عن قرائه ، اعتدادا منه بأنه

من المؤلفين!" .. وهذا ما حرص "**شتاينبيك**" – وما يزال إلى اليوم يحرص – على تفاديه!

ومع ذلك ، فإن رواجَ مؤلفاته لم يلبث أن غيّر من معالم حياته بالفعل ، إذ تحسنت أحواله المادية ، حتى إنه كتب لوكيليه – اللذين صارا أقرب الأصدقاء إليه – يقول: " لشد ما صارت الحياة جميلة منذ أن ابتعتُ مدفأة تشعل بالكيروسين لغرفة مكتبي .. لقد تغيرت نظرتي إلى كل شيء تغيرا شاملا .. ألا ما أبدع اليدين الدافئتين!" .

آراء أبطاله ليست من تعاليم "الصالونات"!

على أن رواية "**تورتيلا فلات**" لم تكن أولَ رواج لإنتاج "**شتاينبيك**" في ميدان النشر فحسب ، بل إنها كانت كذلك أول اتصال بينه وبين "**هوليوود**" وميدان السينما، إذ ابُتيع منه حقُ إخراجها على الستار الفضي .. وكانت هذه من أكبر المفاجآت في حياته .. فقد كان ، كما وصف نفسه ، لايذهب إلى دار السينما سوى مرة في العام عادة!

ولقد أثارت رواية "**المعركة المشكوك فيها**" – التي نُشرت في سنة ١٩٣٧ – كثيرا من المتاعب قبل أن تخرج إلى واجهات المكتبات .. فقد كانت – كما وصفها "**شتاينبيك**" أثناء انهماكه في تاليفها – "**كتابا قاسيا**"، لأنه خال من أية فكرة أو موعظة أخلاقية .. وقد يبدو الحوار بين العمال – في سياقه – مما يخْدش الآذان في النوادي النسائية الراقية ، ولكن هذا ليس بالمهم ، إذ إن النساء لن يُصَدِّقْن أن مثل هذا الحوار يجري في الواقع .. ولكنني خبير بهذا الأسلوب ، وقد مللتُ أن أجرد العمال من أسلوبهم الطبيعي لأجعلهم يتكلمون بأسلوب براق!" .

وعندما أبدى الناشر شكهّ من أن يكون في الكتاب ما يُؤخذ على أنه آراء شيوعية ، أجاب "**شتاينبيك**" قائلا: " إن ما تضمنه الكتاب إنما أُخذَ عن العمال "**الإيطاليين**" و"**الأيرلنديين**"،الذين اكتسبوا آراءهم من واقع الحياة والعمل .. فإذا كانت هذه

شيوعية، فهي شيوعية من صميم الحياة، وليست تعاليم تُلَقَّن في الصالونات .. "إنهم لايؤمنون بالمذاهب والآراء والأساليب المثالية ، لأنهم إنما يفعلون ما تدفعهم إليه الظروف التي يعيشون فيها!" .. وكان أشدَّ ما آلمه بعد نشرها ، أن النقاد تناولوها من الناحية السياسية لا الأدبية .. فقد ساءه ألا يفطن النقاد إلى القيمة الروائية للكِتَابِ ، وهي التي يعتز بها الكُتَّابُ!

"النرويج".. مسرح "الثأر للوطن"

وأتاح نجاح كتاب "**فئران ورجال**" لـ"**شتاينبيك**" فرصة القيام بأول رحلة له إلى "**أوروبا**" ، وكان مَشوقا لزيارة الدول **السكندنافية** ، إذ كانت لغاتها هي اللغات الأجنبية التي تَرجم إليها إنتاجُه لأول مرة.

على أن قلبه لم يَعْلَق بأي من الدول **السكندنافية** بقدر ما علق بـ"**النرويج**" التي جعلها – بعد خمس سنوات– مسرحا لأولى القصص التي نقدمها لك في هذا العدد من "مطبوعات دار ميوزيك" .. وهي قصة "**غروب القمر**" أو "**الثأر للوطن**" ..

وبينما كان كتابه الجديد– "**الفرس الأحمر**" – تحت الطبع ، ترك "**شتاينبيك**" وزوجته الدول **السكندنافية** إلى "**روسيا**"، ولكنهما لم يقضيا فيها المدة التي كانا يرجوانها ، بل بادرا بالعودة قبل الموعد المحدد إلى "**أمريكا**"، حيث شرع الكاتب في إعداد مادة كتاب جديد، نُشر فيما بعد باسم "**كروم السخط**".. فلقد عاش "**شتاينبيك**" في المزارع والمراعي أمدا طويلا منذ صباه ، فعرف الفاقة التي كان يعيش فيها أبناء الوديان القابعة بين الجبال في "**كاليفورنيا**"، ولمس مرارة عيشهم ، وكتب إلى وكيليه يقول :" لابد لي من أن أسعى إلى الوديان الداخلية ، فهناك خمسة آلاف أسرة تَتَضَوَّر جوعا ، إلى درجة الموت.. وإن الحكومة لتحاول أن تعينهم بالأطعمة والخدمات الطبية، ولكن الهيئات الاستغلالية الفاشية والمصارف وكبار ملاك الأراضي الزراعية ، يحاربون هذه الجهود .. أفتعلمان ما الذي يُخيفهم ؟.. إنهم يروْن أنه إذا أُتيح لهؤلاء الناس أن يعيشوا في

معسكرات تتوفر فيها كافة الضرورات الصحية ، فإنهم لن يلبثوا أن ينتظموا .. وهذا هو الشيء الذي يقُض مضاجع كبار ملاك الأراضي والشركات الزراعية ! .. لسوف أبذل قصارى جهدي من أجلهم .. ألا ما أقلّ الكتب التي تواجه مثل هذه المآسي المفجعة ! " .

وقام بجولته ، وبذل قصارى جهده كما وعد ، حتى إذا عاد إلى داره ، عكف على تأليف أقوى كتاب وضعه حتى ذلك الحين .. وهو "**كروم السخط**" ، الذي نُشر في سنة ١٩٣٩ !

يَنقُد نفسَه وإنتاجَه بمرارة!

ولكن ، ما أعجبَ الأحداث التي مرّت منذ بدأ "**شتاينبيك**" أول سطر في هذا الكتاب ، وبين اليوم الذي نشر فيه الكتاب ! ..

فبعد أن فرغ من الكتاب ، كتب لوكيليه يقول : " إنه كتاب رديء ، ولابد من أن أتخلص منه .. فلاسبيل إلى طبعه .. وترجع رداءته إلى أنه ليس أمينا ! .. حقيقة أن الوقائع التي تضمّنها حدثت كلها ، ولكن .. ولكني لم أُوردْ من الحقيقة عنها بقدر ما أعرف ! " .

ويمضي "**شتاينبيك**" في الخطاب قائلا : " لقد وضعت حتى الآن ثلاثة كتب غير أمينة ، لأنها أقل من قصارى جهدي ، وأحد هذه الكتب لم ترياه، لأنني أحرقته في اليوم الذي فرغت فيه منه . أما الثاني فهو "**قصة الجريمة**" .. وهذا هو الثالث . ولقد انسقت إلى كتابة الأول والثاني لدفع ضيق مالي شديد، أما هذا الكتاب فانسقت في كتابته إلى التزام شعرت به ! ..

إنني أعرف أنكما قد تبيعان من هذا الكتاب ٣٠,٠٠٠ نسخة .

وأعرف أن عددا كبيرا جدا من الناس قد يَخالون – بعد قراءة هذا الكتاب – أنهم أحبوه .. ولقد ناقشت نفسي كثيرا ، ولكني لاأُحِب الكتاب ! .. ولسوف يَتأتى عن طبعه ضرر يفوق الضرر الذي ينجم عن إعدامه .. فأنا لم أشعر قط أثناء كتابته بتلك

المتعة الدافئة العجيبة التي تعتري المرءَ عندما يكون العمل سائرا على ما يرام . لقد كان حافزي على العمل منذ البداية هو حمل الناس على أن يفهم كل منهم الآخر ، فإذا بي أنزلق في وضع هذا الكتاب إلى حمل الناس على أن يكره كل منهم الآخر ، عن طريق التفاهمِ الناقِص !.. وما لم أستطع أن أكتب أفضل من هذا ، فإني أكون قد انحدرت بدرجة كبيرة!

.. إن الكتاب يجب أن يكون حياة تعيش أمدها بأكمله .. وهذا الكتاب لايفعل ذلك!" .

ثم يضرب "**شتاينبيك**" المثل للكتّاب الذين يقفون حائرين بين المادة والأمانة الأدبية، فيقول :" إنني أكافح الفقر سنوات طويلة عديدة ، ولكنني أكون ملعونا إذا هبطْتُ عن مستواي عند أول هبة من رياح النجاح !.. إن الهبوط عن المستوى شبيه بالإقدام على السرقة للمرة الأولى، فهو عسير محفوف بالمشقة ، ولكنه في المرة الثانية أقل عناء ، ثم لايلبث أن يغدو سهلا بعد قليل .. إن هذا الكتاب تجربة في الخداع..

والخداع في كتاب هو الغش والخيانة!" .

ويختتم خطابه قائلا :" أعتقد أن هذا الكتاب سيكون درسا نافعا لي. فأنا الآن في خطر من أن أصدق الدعاية التي تدور حولي .. إنني أدرى الناس بكتابي!" .

"كروم السخط".. حدث بارز في تاريخ النشر!

وبدلا من أن يَصدر "**كروم السخط**" ، نُشر بدلا منه – في سنة ١٩٣٨– أول كتاب تضمن قصصا قصيرة ، غير مترابطة ، في مجموعة واحدة!

وعكف "**شتاينبيك**" على "**كروم السخط**" يُعيد كتابتها من جديد، فأرهق نفسه كل الإرهاق ، وكان خليقا بالنجاح الذي ظفر به .. فقد أثارتْ الرواية ضجة هائلة في "**الولايات المتحدة**"، تحسنت على أثرها أحوال سكان الخيام في وديان "**كاليفورنيا**"!.. بل لقد اعتُبر هذا الكتابُ من الأحداث البارزة في تاريخ النشر في "**أمريكا**" . ولكنه

خلّف "**شتاينبيك**" منهوك القوى ، معلولا ، فلم يسترد قواه ونشاطه إلا بعد شهور عديدة .. ولم يستطع أن يَجري على مألوف عادته ، فبدأ كتابا جديدا قبل ظهور آخر كتاب فرغ منه!

وثمة انقلاب آخر أحدثه هذا الكتاب في حياة "**شتاينبيك**" .. فلقد دفعه إلى تيار الشهرة على الرغم منه ، حتى لقد كتب يقول عن متاعبه :" لقد أصبحت في شغل بشهرتي ككاتب ، حتى إنني لم أعُدْ أجد وقتا للكتابة.. وكأنما طرح عشرةُ آلاف شخص كلَ أعمالهم وشؤونهم، لكي ينصرفوا إلى حملي على الكلام . وقد أخذ خوفي من الوجود بين جماعَاتٍ من الناس يزداد إلى درجة أنني أصبحت أرتبك إذا تحدثتُ إلى أكثر من واحد !"

وفي تلك الأثناء ، كانت الحرب تخيّم على سماء "**شتاينبيك**" ، كما كانت تخيّم على سماء العالم. وهكذا تضافرتْ العوامل على تعطيله عن الإنتاج ، وحاول في البداية أن يُقاوم ، ففر إلى "**المكسيك**" .. إذ نمى إليه أن عالما يدع "**إدوارد ريكتيس**" أعدّ رحلة إلى هناك للدراسة وجمع المعلومات ، فشاطره الرحلة وعاد من "**المكسيك**" بمادة لكتابين.. أولهما "**القرية المنسية**"، الذي نشر في سنة ١٩٤١، والذي اتخذته السينما المكسيكية مادة لأحد أفلامها الناجحة .. أما الكتاب الآخر ، فكان لونا جديدا من الإنتاج .. كان مادة علمية – عن دراسات بيولوجية تدور حول الكائنات الحية في "**المكسيك**" – صاغها في قالب قصصي مستساغ. وقد نُشر هذا الكتابُ في سنة ١٩٤٢ .

العدوان النازيّ .. أساس فكرة "الثأر للوطن"!

واتسعَ نطاقُ الحرب ، حتى انزلقتْ "**الولايات المتحدة**" إلى المعْمَعَة ، . وعرض "**شتاينبيك**" جهوده ومواهبه على الحكومة، فاستعانت به كثير من المصالح والهيئات الحكومية ، ولكنه صُدِم حين تبينّ الهوة الواسعة التي تفصل بين الحماس القومي والروتين الحكومي .

على أنه انتهز هذه الفرصة كي يُسَجّل كراهيته للعدوان ، وانتصاره للحرية . . ولكي يواسي "**النرويج**" – التي [illegible] ارها في سنة ١٩٣٧ – فقد قُدرٌ له أثناء عمله في إدارة الخدمات الاستراتيجية أن [illegible] احب أحد الضباط المتخصصين في فنون مساعدة حركات المقاومة في الدول الأو[illegible] التي احتلها النازيون . . ومن الأحاديث الجدية التي دارت بينه وبين هذا الضابط ، استطاع أن يُكَ[illegible] رة قصة "**غروب القمر**" ، حتى إذا تبلورت في ذهنه ، وتجمّعتْ لديه البيانات الكاف[illegible] ركات المقاومة وأساليبها ، عكف على كتابة هذه الرواية ، فإذا بها تلقَى نجا[illegible] ما [illegible] ندما نشرها في سنة ١٩٤٢ وقد شجعه هذا النجاح على أن يقتبس من الرواية نفسها مسرحية من جزأين – بنفس الاسم– ظهرت في العام ذاته!

ومع انقضاءِ قرابة عِقدين من الزمان على نشر هذه الرواية لأول مرة، إلا أنها تعتبر من أروع وأدق ما كُتب عن المقاومة السرية للعدوان والاحتلال الأجنبي ، حتى اليوم، وقد تُرجمت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى عدة لغات ، مما أكسبها شهرة عالمية .

الساحر اللطيف .. الخشن!

كذلك خرج "**شتاينبيك**" من أحاديثه مع أحد قادة السلاح الجوي الأمريكي بفكرة

كتاب يدور حول تدريبات وأعمال السلاح الجوي ، أسماه "**قنابل إلى الخارج**" .، على أن من المغالطة أن يُدرج هذا الكتاب في قائمة الإنتاج الأدبي لـ"**شتاينبيك**" ، لأنه في الواقع لم يكن مادة أدبية بالمعنى الصحيح ، ولا كان نابعا عن تفاعلات صادقة ، وإنما .. كان نوعا من "**المقاولة**" عَهِدَ به السلاح الجوي الأمريكي لـ"**شتاينبيك**" ، فسخّر قلمه وفكره في إنجاز هذه "**المقاولة**" .. أو بمعنى أصح ، كانت مهمة كُلف بها رسميا ، فأداها إظهارا لشعوره القومي!

على أنه خاض تجربة أخرى أثناء الحرب، إذ أتيح له في سنة ١٩٤٣ أن يرحل إلى "**أوروبا**" مع بعثة أمريكية، فقام بُمهِمّة المراسل الحربيّ لصحيفة "**الهيرالد تريبيون**" في "**إنجلترا**" وحوض البحر الأبيض المتوسط .

وفي غمرة هذا النشاط الحربيّ راوده الحنين إلى الأدب ، وإلى تأليف الروايات .. واتجه حنينُه بوجه خاص إلى جو وأسلوب وطريقة "**تورتيلا فلات**" التي ألفها قبل ذلك بعشر سنوات ، فأخذ ينساق لهذا الحنين في صمت ، ثم فاجأ وكيليه في سنة ١٩٤٤ برواية "**كناري رو**" .. كما كتب "**لؤلؤة العالم**" للسينما المكسيكية التي أخرجتْها في فيلم في سنة ١٩٤٥ . وقد حاول "**شتاينبيك**" أن يحذو في "**اللؤلؤة**" حذو الأدب الشعبي التقليدي، على أنه خرج من هذه التجربة بعزم وثيق على ألا يكتب للسينما بعد ذلك!

ولقد تتابعت مؤلفاتُ "**شتاينبيك**" بعد ذلك ، ولكنها ليست بالوفرة التي تدفّق بها إنتاجُه في المرحلة التي فصلناها هنا.. كما أنها ليست من الأهمية بمثل تلك المؤلفات الأولى لا لأنها أقل منها قيمة – من الناحية الأدبية – وإنما لأن هذه المؤلفات الأولى كانت الدعامات الأساسية في مجد "**شتاينبيك**" .. كانت الإنتاجَ الذي جعل النقاد يصفونه بأنه:" نابغة ساحر في رواية القصص.. يجمع بين العنف والعاطفة، وبين اللطف والخشونة ، وبين الإزعاج والجمال " .. فهو يُجيد وصف كل لون ، ويمزج الألوان بعضها ببعض في قصصه ببراعة وعبقرية!

الفصل الأول

ما إن حلتْ الساعةُ الحادية عشرة إلا ربع حتى كان كل شيء قد انتهى ، فقد تم احتلال البلدة ، وُمنيَ المدافعون عنها بالهزيمة ، وَوَضَعتْ الحرب أوزارها ، إذ كان الغازي قد أعدّ العدة لهذه الحملة بنفس العناية التي كان يبذلها للحملات الأكبر منها!

وكان مُوَزع البريد والشرطي قد خرجا لصيد السمك- في صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد- في قارب السيد "**كوريل**"، إذ كان صاحب المتجر المشهور قد أعارهما هذا القارب الأنيق ذا الشراع ليَقْضيا فيه يومهما . وما إن توغل موزعُ البريد والشرطي بضعة أميال في عَرْض البحر، حتى شاهدا ناقلة الجنود الصغيرة ، الداكنة اللون، تمر بهما في هدوء.. ولم يكن ثمة شك في أن هذا الأمر يعنيهما بوصفهما من موظفي المدينة، فبادرا إلى العودة . وما إن وصلا إلى الميناء ، حتى كانت الكتيبة قد استولت على البلدة في الواقع ، إلى حد أن موزع البريد والشرطي لم يستطيعا دخول مكتبيهما في مبنى البلدية، ولما أصرا على أن هذا من حقهما ، أُخِذا كأسيريْ حرب، وأُلْقِيَ بهما في سجن البلدة!

وكان الجنود المحليون الاثنا عشر غائبين جميعا في صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد ، إذ إن السيد "**كوريل**"، صاحب المتجر المشهور ، كان قد قدم الغداء ، و"الأهداف"، والخراطيش ، والجوائز ، هدية منه في مسابقة للرماية أقيمت في مرج جميل كان يمتلكه بين الجبال على مسيرة ستة أميال من البلدة . وكان الجنود المحليون من الشباب ذَوِي العزائم المتراخية! ومع أنهم أسرعوا في خُطَى حثيثة ، عائدين إلى البلدة ، بمجرد أن سمعوا أزيز الطائرات ، وشاهدوا على البعد هبوط جنود المظلات ، إلا أنهم لم يصلوا حتى كان الغزاة قد نصبوا المدافع الرشاشة على جانبي الطريق . ولم يكن لهؤلاء الجنود سوى خبرة ضئيلة بالحروب ، كما أنهم لم يكونوا قد عرفوا الهزيمة من قبل ، فبدءوا بإطلاق النار من بنادقهم وأجابتهم المدافع الرشاشة ، فإن هي إلا لحظة ، حتى سقط ستة منهم صرعى، وأصيب ثلاثة منهم بجراح خطيرة جعلتهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة ، ثم فر الثلاثة الباقون إلى الجبال يحملون بنادقهم!